1430هـ/2009م

علم الاجتماع والتحديات الاجتماعية الراهنة
مقاربة منهجية نحو تأسيس علم اجتماع الاحتلال

أ.م.د. خليل محمد الخالدي*

تاريخ التقديم: 2008/7/17 تاريخ القبول: 2009/1/28

المقدمـــــة

لا شك أن الظروف العصيبة التي يعيشها المجتمع العراقي وهو يرزخ تحت احتلال وحشي، أتى على كل مؤسساته وتنظيماته وأبنيته الاجتماعية والثقافية قد خلف كما هائلا من المشكلات الاجتماعية والاقتصادية والسياسية التي انعكست على واقع المجتمع ميدانياً إثرَ ظهور الكثير من الأزمات الاجتماعية والنفسية، التي هزت البنى الاجتماعية والتنظيمية بنائياً ووظيفياً، فجعلتها غير قادرة على النهوض بوظائفها ومهامه إزاء الأفراد والجماعات.

وما رافق ذلك من تفكك اجتماعي وتنظيمي في الأدوار والمراكز والعلاقات الاجتماعية، سواء على مستوى الفرد أم على المستوى المجتمعي بشكل عام أثّرَ على المخلفات الاجتماعية التي ظهرت بعد احتلال العراق، من الصراع الطائفي والعرقي والتناحر والتصارع ما بين شتى الكتل والجماعات الاجتماعية، ولعل نظرة دقيقة إلى ما أحدثه الاحتلال من ويلات ومشكلات تجسدت على هيئة، (5) ملايين يتيم، (3) ملايين أرملة، (1) مليون عاطل عن العمل، (9) ملايين تحت خط الفقر، (6) ملايين بين نازح ومهجر.... من الكوارث الاجتماعية التي حلت بالبلد.

* قسم علم الاجتماع/ كلية الآداب/ جامعة الموصل.

ان هذه النماذج من المشكلات وغيرها مما ترتب على الاحتلال تستدعي من شتى الاختصاصات والميادين للتصدي بدراستها وتحديد أسبابها وأبعادها المستقبلية على المجتمع العراقي.

قسمت الدراسة على ثلاثة محاور اهتم المحور الأول بالإطار المنهجي، في حين اهتم المحور الثاني بتبيان دواعي ودوافع نشأة علم اجتماع الاحتلال، أما المحور الثالث فجاء لتبيان الميادين والظواهر الاجتماعية التي يهتم بها العلم، فضلا عن النتائج والتوصيات. والله من وراء القصد.

الإطار المنهجي للبحث

أولاً: مشكلة البحث:

ان لكل علم رسالة وطائفة من الوسائل والأساليب التي بها يحقق أهدافه العلمية في بناء إطاره النظري والعلمي من جهة وتحقيق وظائف وأهداف المجتمع من جهة أخرى، وإنّ علم الاجتماع شأنه شأن العلوم الطبيعية والسلوكية الأخرى يتجلى من خلال رسالته الاجتماعية والإنسانية التي تسعى إلى بناء الإنسان والمجتمع بناءً سليماً يحقق تقدم المجتمع ورفاهيته في جميع المجالات.

وهذا ما يبرز رسالة العلم في الاصطلاح الاجتماعي التي بدأت منذ وقت مبكر في اهتماماته كونها قضية مركزية في تنمية وتطوير المجتمعات البشرية إذ إن الأصل في اهتمامات العلم الاجتماعي هو دراسة وتشخيص الواقع الاجتماعي وتناقضاته ومختلف ظواهره ومشكلاته التي تحول دون أمنه واستقراره وتطوره.

وهذا المطلب بقي قاعدة ومنهجاً أساساً في توجهات العلم واهتمامات هـ النظرية والعملية في مختلف المراحل التاريخية التي مرت بها المجتمعا ت البشرية، وهنا ندعو إلى تفعيل الدور الاجتماعي وتحريكه نحو دراسة الواقع الاجتماعي بما يتضمنه من تحديات اجتماعية واقتصادية وسياسية خطيرة تكاد تأتي على بنيانه الاجتماعي وتجعله بركاناً يغلي ليلقي بحممه على رؤوس الناس والمؤسسات كافة.

إن الواقع المأساوي الذي خلفه الاحتلال الأمريكي في المجتمع العراقي أفرز جملة من المشكلات والصعوبات والتحديات الاجتماعية والنفسية والسياسية الخطيرة التي أخذت تهدد كيان المجتمع ووحدته وتضامنه تستدعي تأسيس فرع جديد يدرس المظاهر التي خلقها الاحتلا ل تحت مسمى علم اجتماع الاحتلال، وإن مشكلته تدور حول ماياتي: ما المقصود بعلم اجتماع الاحتلال؟ وما دواعي نشأته؟ وما التحديات الاجتماعية، والظواهر التي يدرسها هذا العلم؟.

ثانياً: أهمية البحث

تبرز أهمية الموضوع من خلال تصديه للظواهر والتحديات الاجتماعية الخطيرة التي ظهرت في المجتمع العراقي أعقاب فترة الاحتلال الأمريكي للبلد، إذ إن هذه المشكلات والظواهر الاجتماعية الخطيرة إنما تشكل تحديات اجتماعية كبيرة تحول دون تماسك المجتمع وتضامنه، فضلاً عن ذلك فإن الموضوع يتناول ظاهرة أساسية في حياة المجتمع وانتظامه التي أصبحت هاجساً يراود كل فرد لكل فرد من أفراد المجتمع، وهي ظاهرة فقدان الأمن الاجتماعي والانفلات المؤسسي الرسمي وغير الرسمي الذي بات يهدد أمن المواطن وحياته الاجتماعية في كل لحظة وفي كل جانب من جوانبها سواءً في مجال انعدام فرص العمل وتنامي وتأثر البطالة بين صفوف الشباب أم في مجال كثرةِ الصراعات والاحتدامات التي باتت تهدد حياة المواطن، فضلاً عن أن كثيراً من الناس قد فقدت مصادر رزقها حيث عطلت مفاصل كثيرة من قطاعات الصناعة والزراعة، ومختلف المهن والحرف التي سدت أبوابها بسبب الظروف الأمنية السيئة التي عمت جميع نواحي الحياة، إن أهمية الدراسة تتجلى في تشخيص طائفة من المشكلات والتحديات وإمكانية وضع التوصيات التي تحيط بها.

ثالثاً: أهداف البحث

1. يسعى إلى تشخيص أبرز التحديات الاجتماعية التي ظهرت إبان الاحتلال.
2. دعوى نشأت علم اجتماع الاحتلال.

3. وضع توصيات ومقترحات تستوعب التحديات الاجتماعية التي طرأت على المجتمع العراقي.

رابعاً: منهج البحث

إن هذه الدراسة تتبنى المدخل الاجتماعي النقدي الذي يسعى إلى تحديد وتشخيص التناقضات الاجتماعية والاقتصادية ومختلف الظواهر والمشكلات الاجتماعية التي يعاني منها التنظيم الاجتماعي للمجتمع فضلاً عن تشخيص مختلف جوانب التفكك الاجتماعي والتنظيمي التي يفرزها الواقع الاجتماعي بتجلياته وتناقضاته التي خلفها انهيار البنى الاجتماعية والمؤسساتية فيه، فضلاً عن تراخي ميكانزمات الضبط الاجتماعي الرسمية وغير الرسمية مما ينجم عنه بروز طائفة كبرى من مظاهر الخلل الوظيفي والبنائي لسائر أبنية المجتمع.

إن هذا المدخل الاجتماعي القائم على نقد وتشخيص مظاهر الوهن الاجتماعي والتلكؤ الوظيفي الذي يطرأ في ظل ظروف التغير الاجتماعي والثقافي السريع الذي يعصف بالمجتمع وإنما يسعى لتقديم رؤية اجتماعية هادفة في لفت أنظار مختلف الهيئات الحكومية والمجتمعية وسائر المختصين والمهتمين من السياسيين والمخططين والإداريين إلى معالجة وتحجيم مثل هذه الكوارث والأزمات الاجتماعية ودرء مخاطرها عن المجتمع، إن هذا المدخل يقوم على الملاحظات العيانية الدقيقة لمفاصل الحياة الاجتماعية ميدانياً فضلاً عن المقابلات والمعايشات الميدانية برؤى اجتماعية وانثروبولوجية قوامها النقد والتقويم وإصلاح مايمكن إصلاحه وإنقاذ مايمكن إنقاذه اجتماعياً.

خامساً: مفاهيم البحث

أولاً: علم الاجتماع Sociology

هو العلم الذي يدرس النماذج الاجتماعية patterns أو النظم الاجتماعية institutions، ومعظم علماء الاجتماع يأخذون بهذا التعريف[1]، كما يعرفه العالم جورج زمل بأنه العلم الذي يهتم بدراسة شبكة العلاقات والتفاعلات الاجتماعية التي تقع بين الأفراد والجماعات والمؤسسات على اختلاف أنواعها وأغراضها [2]، ويُعرف بأنه العلم الذي يختصُّ بدراسة المجتمع الذي يتكون من أفراد ينتمون إلى جماعات بشرية تكون في حالة اتصال وتفاعل الواحدة مع الأخرى ولكل من هذه الجماعات هياكلها ووظائفها وأهدافها، والتي غالباً ما تنسجم مع طبيعة المجتمع الكبير وتسير في خطة العام[3].

ثانياً: الاحتلال Occupation

يعني الاحتلال إقامة قواعد عسكرية في أرض أجنبية تمكيناً لاستعمارها بدون رضى أهلها، وكان الاستعمار في صورته القديمة يعتمد اعتماداً مطلقاً على الاحتلال العسكري في التمكين من فرض سيادته وتحقيق أهدافه، التي لا يتيسر تحقيقها إلا باستخدام القوة المادية [4]. والاحتلال يرادف الاستعمار في كثير من مدلولاته، فالأخير كذلك يعبر عن نزعة بعض الشعوب القوية إلى أن تمد سلطانها وتبسط نفوذها على شعوب أخرى فهي وسيلة من وسائل الإمبريالية، وتدفع إليها بأسباب سياسية واقتصادية وتخضع المستعمرات خضوعاً تاماً لسلطان المستعمر ومصلحته، وما يحاوله فيها من نهوض أو إصلاح لا يمكن أن يتعارض مع ذلك[5].

---

(1) إبراهيم مدكور، معجم العلوم الاجتماعية، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 1975، ص407.

(2) د. إحسان محمد الحسن، موسوعة علم الاجتماع، ط 1، الدار العربية للموسوعات، بيروت، 1999، ص419.

(3) المصدر نفسه، ص419.

(4) احمد عطية الله، القاموس السياسي، ط3، دار النهضة العربية، القاهرة، 1968، ص22.

(5) إبراهيم مدكور، المصدر نفسه، ص35.

دواعي نشأة علم اجتماع الاحتلال

ان لكل علم معالم منهجية ونظرية وميادين يتحرك فيها بكل فروعه واختصاصاته ولا ريب ان هذه الميادين والاتجاهات في تغير وتبدل مستمرين بحكم حركة التغير الاجتماعي والثقافي التي تظهر في شتى مفاصل الحياة الاجتماعية والاقتصادية والثقافية، والتي تطال أبنية المجتمع ومختلف وظائفه. وهذا مايدعو بالضرورة إلى انبثاق فروع جديدة في العلم وولادة تخصصات حديثة توافق هذه التحولات الديناميكية والتشضيات الاجتماعية اللامتناهية في مختلف جوانب الحياة وأنساقها وأنماطها السلوكية وبنيتها القيمية والأخلاقية. وهكذا انبثقت ولادة فروع علمية جيدة في علم الاجتماع نظراً للتطور المعرفي للعلم ذاته ولتراكم خبرات ومهارات أخصائيه وباحثيه من جهة، ونظراً لحاجة المجتمع الماسة لمثل هذه الفروع من جهة أخرى. كما ينبئنا التطور التاريخي للعلم عن ولادة فروع مثل علم الاجتماع الاقتصادي والتنظيمي والجنائي وعلم اجتماع المشكلات الاجتماعية وعلم اجتماع الأزمة وعلم اجتماع التنمية... الخ.

وهذه الفروع ظهرت لتعالج قضايا وظواهر أساسية ومركزية في حياة الأفراد والمجتمعات كقضايا التنمية والتحديث والتغير الاجتماعي وظواهر الجريمة والانحراف وتنامي ظهور المشكلات الاجتماعية والنفسية التي بدأت تنتشر في المجتمعات التي تشهد تغيرات اجتماعية وثقافية سريعة كما يمر به مجتمعنا العراقي اليوم وهو يرزخ تحت الاحتلال الأمريكي الذي عاث في البلاد فساداً وتدميراً لبنى المجتمع وأنساقه وضوابطه الرسمية المؤسسية وغير المؤسسية التي فقدت قدرتها على ضبط وتنظيم علاقات الناس وسائر تفاعلاتهم وأنشطتهم الاجتماعية والاقتصادية بفعل ما أصابها من ضغوط داخلية وخارجية على هيئة متغيرات وسلوكيات ومفاهيم جديدة طرأت على واقع حياتنا علما أنها لم تكن معهودة ولامعروفة في البناء الاجتماعي والثقافي للمجتمع العراقي.

إن الاحتلال الأمريكي للعراق 2003/4/9، قد أفرز ظواهر اجتماعية ومشكلات اجتماعية عصية على الحل أثارها بسياساته وإجراءاته التعسفية تحقيقا لأهدافه الإستراتيجية في تمزيق وحدة البلد وتقسيمه إلى أجزاء وأقسام ليسهل له

قيادتها والسيطرة عليها، وتنفيذاً لهذه المخططات والأهداف فقد سعى إلى تأجيج هذه الصراعات الطائفية والعرقية والقومية بين مختلف طوائف المجتمع وشرائحه الاجتماعية فأغرق البلد في بحر من الدماء الزكية وفي دوامة من العنف تجعل الحليم حيراناً وتذهل العقول في فهمها وإدراك أبعادها وأسبابها وآفاقها المستقبلية.

ونستعرض نماذج من هذه الكوارث والمشكلات التي ثورها الاحتلال في بلادنا كالقتل على الهوية والقتل الجماعي والصراع الطائفي والعرقي وفقدان الأمن الاجتماعي وعلى جميع المستويات وتنامي وتائر السلوك الانحرافي من الخطف والسلب والنهب والابتزاز والتهديد والترويع والتهجير القسري الداخلي والخارجي والاستحواذ على ممتلكات المواطنين وأموالهم المنقولة وغير المنقولة ناهيك عن الجرائم التي ارتكبها إزاء المعتقلين كما في فضائح سجن أبو غريب التي سجلت نقطة سوداء في سجل جرائم المحتل وكما في المداهمات والاعتقالات العشوائية التي تجريها قوات الاحتلال بين الفينة والفينة، إن هذه الجرائم والسلوكيات المنحرفة والتحديات الاجتماعية التي يعاني منها الأفراد والأسر والجماعات على نحو فقدان الأمن الاجتماعي بكل صورة وفقدان مصادر الرزق والكسب وفرص العمل وتنامي معدلات البطالة بين صفوف الشباب في المجتمع كل ذلك خلف وضعاً اجتماعياً خاصا رافق ظهور الاحتلال في هذه الحقبة التاريخية من تاريخ مجتمعنا.

والتساؤلات التي يثيرها الباحث تتجلى في الطروحات الآتية:

إن هذا الوضع المأساوي الذي يعيشه البلد تحت نيران الاحتلال ألا يستدعي المختصين الاجتماعيين حصراً بأن يمارسوا دورهم العلمي إزاء هذه التحديات؟

إن الكوارث الاجتماعية والأزمات السياسية والاقتصادية وشتى مظاهر الخلل والتفكك الاجتماعي والمؤسسي الذي شهدته البنى الاجتماعية والتنظيمية ألا يستدعي ولادة فرع جديد في علم الاجتماع يدعى بعلم اجتماع الاحتلال(*).

* ان الباحث قد تبنى هذا التخصص العلمي منذ أن احتل البلد في 2003/4/9، إذ كتب دراستين في هذا المجا ل منشورتين في مجلة آداب الرافدين، الأولى بعنوان ((الآثار

إن المشكلات الاجتماعية التي تجلت في مظاهر الفساد الإداري والسياسي والاقتصادي في سائر مؤسسات الدولة وتنظيماتها ألا يؤكد على ضرورة وجود علم كعلم اجتماع الاحتلال؟

من خلال عرضنا للمبررات العلمية والعملية إلى نشأة هذا الفرع الجديد الذي يختص بدراسة الآثار الاجتماعية والنفسية والاقتصادية والثقافية والسياسية التي خلفها الاحتلال في بلادنا في هذا الظرف الراهن على وجه التحديد ولا يخفى ان كل جانب من هذه الجوانب يتفرع إلى أبعاد ومتغيرات كثيرة يمكن أن تكتب فيها دراسات وأبحاث كثيرة كل باحث ينطلق من زاوية معينة فبهذا الجهد نكون قد حققنا هدفين مزدوجين في آن واحد.

أولهما: فضلاً عن الدراسات الاجتماعية التشخيصية لمختلف الظواهر والمشاكل فإننا نؤرخ اجتماعياً لمرحلة تاريخية مظلمة عاشها العراق في هذا العقد.

وثانيهما: نؤصل لولادة هذا الفرع الحيوي المهم من فروع علم الاجتماع الذي ربما يصبح علماً وفرعاً عالمياً يهتم بالقضايا والظواهر التي يخلقها الاحتلال في البلاد المحتلة.

ولا يفهم من هذا العنوان الذي طرحه الباحث تحت مسمى علم اجتماع الاحتلال انه علم تبريري يمهد لنشأة الاحتلال بل إن هذا العلم على النقيض من ذلك تماما إنما هو علم يعكف على دراسة ما يخلفه الاحتلال من إشكاليات وأزمات اجتماعية ونفسية خطيرة تحول دون تحقيق تماسك المجتمع وتضامنه من خلال تأجيج مظاهر الصراع فيه وبؤر التوتر الناتجة فيه لجعل المجتمع يعيش في دوامة من الاضطرابات والصراعات والفتن التي تتجسد في هيئة أنماط سلوكية كما في الاحتقان الطائفي والعرقي والحزبي والايدولوجي الذي انتشر في البلد بفعل التكتلات الحزبية والسياسية القائمة على أسس طائفية وعرقية وقومية ومذهبية، ضاربة كل الأسس الموضوعية والعقلانية التي تقوم عليها الحركات والأحزاب

الاجتماعية لانهيار المؤسسة السياسية)) والثانية ((مظاهر السلوك الانحرافي أبان فترة الاحتلال)) دراسة مشتركة، فضلا عن عدد من المقالات التي نشرت في الصحف والجرائد المحلية.

السياسية التي تسعى إلى تفعيل قيم الوطن والمواطنة والتعايش والتسامح والتسامي فوق كل الاعتبارات الذاتية والمناطقية والفئوية والمذهبية الضيقة التي لا تولد إلا مزيداً من الفرقة والانقسام والابتعاد عن الأهداف الوطنية التي تتلاشى أمامها كل الاعتبارات الجزئية.

إن من دواعي نشأة هذا العلم الغض الواعد هو ما نعيشه من صعوبات وتحديات تجلت على المستوى الفردي والجماعي والأسري والمؤسساتي والمجتمعي بحيث أنها لم يسلم منها أي فرد من أفراد المجتمع فكل فرد منا يحس أنه فقد الكثير من أمنه وحياته وكرامته فهو لا يستطيع أن يمشي حراً طليقاً في أسواق مدينته ولا في شوارعها ولا في أزقتها أو حدائقها وباحاتها الغناء التي كان يهرع إليها الناس للترويح عن أنفسهم في شتى المناسبات ولاسيما في فصل الربيع.

وأصبح كل منا مهدداً في حياته ولا يعلم ماذا سيحل به وهو يقف لساعات طويلة أمام إحدى نقاط التفتيش العسكرية التي اعتادت أن تحجز السيارات في طوابير ممتدة ولأوقات طويلة لا تأخذهم في ذلك رأفة ولا رحمة بحال شيخ كبير يَئِنُّ ألماً ووجعاً أو حال طفل صغير يبكي خوفاً وذعراً من دبابات الاحتلال وسيارات الهمر التي اعتادت أن تضايق المواطنين وتروعهم حيثما مرت بهم.

وغير ذلك كثير من مظاهر المضايقات التي يتعرض لها الناس في أعمالهم أو في محلاتهم أو في ورشهم وحتى في بيوتهم لا يكادون يحسون بنعمة الأمن والأمان التي باتت حلماً بعيد المنال في عراقنا الجديد.

إن هذه الظواهر والملاحظات العيانية التي شخصها الباحث إنما هي نماذج قليلة من طائفة كثيرة من الهموم والمشاكل والظواهر والتحديات الاجتماعية الخطيرة التي برزت وتنامت في هذا الظرف الاستثنائي الذي يعيشه بلدنا الحبيب.

وصفوة القول إن هذا العلم يهتم بدراسة وتشخيص الآثار الاجتماعية والنفسية والاقتصادية التي يخلفها الاحتلال أنى ذهب، ولهذا جاءت دعوتنا إلى تأسيس مثل هذا الفرع الجديد الذي يعكف على دراسة نتائج الاحتلال وآثاره على مختلف البنى الاجتماعية والتنظيمية في المجتمع.

نتائج البحث والتوصيات:

اولاً: النتائج

1. من خلال الدراسة تبين أن هناك مقومات علمية ومنهجية متاحة لتأسيس هذا الفرع من فروع علم الاجتماع، فضلاً عن هذا فإن مجال العلم محدد بدراسة ظاهرة الاحتلال.
2. تبينت لنا الحاجة الماسة إلى تأسيس هذا الفرع، نظراً لكثرة المشاكل التي خلفها الاحتلال.
3. تبينت لنا الآثار الاجتماعية والاقتصادية الوخيمة التي خلفها الاحتلال وهذا يستدعي التصدي لمثل هذه الآثار السلبية وتحجيم آثارها.

ثانياً: التوصيات

1. ينبغي على منظمة الأمم المتحدة أن تفعّل إجراءاتها ضد أي شكل من أشكال الاحتلال وأن تسعى إلى فرض عقوبات على الدول الغازية.
2. رفض الاحتلال والعمل على محاربته بكل صوره وأشكاله محلياً ودولياً.
3. الدعوة إلى نشر ثقافة التسامح الاجتماعي بين مختلف فئات المجتمع وشرائحه.
4. الدعوة إلى ترسيخ فكرة المواطنة والمشاركة الاجتماعية في بناء هذا الوطن والحفاظ على وحدته.
5. رفض كل مظاهر التطرف والعنف، التي تفضي إلى التناحر والاختلاف بين فئات المجتمع.
6. تفعيل دور منظمات المجتمع المدني في النهوض بمختلف احتياجات المجتمع ومتطلباته الاجتماعية والاقتصادية والسياسية.
7. تفعيل دور أجهزة الإعلام في نشر ثقافة المجتمع العراقي الموحد ونبذ كل الدعوات الطائفية والإقليمية التي تنتهجها بعض الجهات.

Sociology of Occupation

Asst. Prof. Dr. Khalil M. Al-Khalidy*

Abstract

The research try to study the social, economic and political impact which the occupation has left on society. The study is done through new science, aims at reaching at what so called Sociology of Occupation. It seeks to study social, psychological and economical problems which have brought by American occupation of Iraq.

* Dept. of Sociology/ College of Arts/ University of Mosul.